((الثقافة المضادة في خطاب اللامنتمي))

- الصعاليك انموذجا-

م. د. كفاية عبد الحميد ناصر
جامعة البصرة / كلية الاداب / قسم اللغة العربية

المدخـــل :

تعتمد الاداة الاجرائية للبحث على طروحات منهج النقد الثقافي في التطبيق والتحليل النقدي . ويعد الناقد الامريكي (فنسنت ليتش) اول من حاول التقعيد للنقد الثقافي وتقديمه مشروعاً نقديا من مشاريع ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية . ولا ينحصر اهتمام النقد الثقافي بمعاينة جماليات الخطاب فقط ، وانما يقوم بتذويب الفواصل ما بين الخطاب وسياقه ، من خلال وضعه داخل س ياقه (السياسي والاقتصادي والاجتماعي) الذي انتجه ، كما يركز على الكشف عن دور سلطة الحقل المعرفي على الخطابات التي تنتمي اليه . ومدى استجابة هذه الخطابات لضغط السلطة او مقاومتها او مهادنتها وحيادها ازائها .

ويحيل النقد الثقافي الى التقاء مظاهر الثقافة الشع بية والمهمشة بما يسمى بالاعمال النخبوية الرفيعة.(١)

لذا يهتم البحث بدراسة خطاب الصعلكة ، كونه يمثل الثقافة المهمشة المقموعة المضادة للثقافة المهيمنة الجمعية (ثقافة القبيلة) الرافضة لكل متمرد ومضاد ومختلف .

ويمكن تحديد الثقافة المضادة : بانها ثقافة معاكسة لكل المعايير والاعراف وخارجة على قيم المجتمع وعلى قيم السلطة وانظمتها وايديولوجيتها وقوانينها ، فهي ثقافة ضد مجتمعية وضد مدنية ، تعبر عن نفسها من خلال منظومة من التقاليد والقوانين والقيم المغايرة الخاصة ، والمميزة بنسقها السالب القائم على مبدأ التضاد مع كل ما هو شائع ومألوف، اذاً هي ثقافة ضد الثقافة المهيمنة السائدة .

وتتجسد هذه الثقافة المضادة في خطاب الصعاليك بأعتبارهم نموذجاً من نماذج اللامنتمي في تمردهم على قيم المجتمع وعلى نظام السلطة وثقافتها المهيمنة .

وقد طرح (كولن ولسون) مفهوم اللامنتمي (the out sider) في كتابه الصادر بهذا الاسم ، معرفا(اللامنتمي) بقوله :

((انه الانسان الذي يدرك ما تنهض عليه الحياة الانسانية من اساس واهٍ ، والذي يشعر بأن الاضطراب والفوضوية هما اعمق تجذرا من النظام الذي يؤمن به قومه ...انه كما يقول (باربوس) " يرى اكثر مما يجب " ، وهو لا يرى الا الفوضى))[٢] .

ويضيف ولسون : ان هؤلاء الاشخاص لا يرفضون الحياة فحسب ، وانما يعاديها الكثير منهم . ان عالمهم مجرد من القيم .

فاللامنتمي لا يرى العالم معقولا ولا يراه منظما ، وحين يقذف بمعانيه الفوضوية ، فانه يحس بشعور بان الحقيقة يجب ان تقال مهما كلف الامر ، والا فلن يكون الاصلاح ممكنا .

ان سلوك اللامنتمي يكمن في عدم قبول الحياة الانسانية التي تعيشها الكائنات السياسية وسط المجتمع الانساني ... فويلز يعيد تصريحه ويكرر : " عداوتنا القاسية للكون التي لا تنفع معها تهدئة " و" لا نموذج لاي نوع "[٣] .

ويتوصل ولسون الى تلخيص مشاكل اللامنتمي مسبغا عليها بعض التعاريف مثل : ((الحرية)) و ((الشخصية)) .

ثم يرى ان حلول اللامنتمي تكمن في[٤] :

١-التطـــــرف .

٢- فكرة الخروج .

ويمكن ان نستنتج ان اللامنتمي يعني اللامجتمعي الذي افرزته ملابسات عصره وعلاقات التضاد والانفصال والتنافر الحادة مع مجتمعه، مما ادى الى تهميشه واقصائه عن الحراك الاجتماعي .

ويمثل الصعاليك هذه النزعة اللاانتمائية من خلال ميلهم الى التطرف والتمرد على قيم السلطة ومعايير المجتمع ، ورفضهم للنظام المألوف واشاعة حالة اللانظام واللام ألوف والفوضى في المجتمع .

وليس خروج الصعاليك على نظام السلطة والقبيلة مجرد نزق فكري ، وانما هو تجسيد لرؤية خاصة للحياة تتجلى في حق الحرية – بوصفها جوهر الماهية الانسانية – وحق امتلاك الشخصية الفردية والتعبير عن الاستقلال الذاتي ، ولا يتحقق ذلك الا عن طريق ارادة القوة والتمرد ، والقيام بعملية انزياح قيمي تقوم على مبدأ الاستبدال والتضاد لاشتقاق قيم جديدة مضادة للقيم النسقية التي يؤمن بها النسق الجمعي ، قيم تحمل معاني جديدة للمساواة والعدالة والحرية ، وتحقيق هوية فردية مستقلة عن الهوية الجماعية القبلية .

ومن خلال هذا الصدام والانزياح وارادة اللاتواصل يعيش الصعلوك صراعا عنيفا ، فينكفئ مؤثرا العزلة على الاندماج والانفصال على التكيف والتمرد على الخضوع .

- سلطة التمرد ضد سلطة النسق الجمعي :

جسدت ثورة الصعاليك على مجتمعاتهم سلطة تمرد وتغيير مضادة لسلطة النسق الجمعي القبلي التراتبي ، واسسه القائمة على مبدأ الاصطفاء والتفاضل والتمييز الطبقي والعرقي ، وما يلحقه من نفي وطرد وتهميش للطبقة العريضة من المجتمع التي تعاني الفقر والحرمان والتحقير والتمييز العنصري ، مما جعل منها طبقة مهمشة مسحوقة ، تتلخص غاية وجودها في خدمة اسيادها من رؤوساء القبيلة ونبلائها ، اذ تفرض هذه الصفوة على الغالبية الفقيرة مبادئ الخضوع والامتثال الطوعي او القسري .

وقد ميز (البيركامو) خصائص المتمرد بانه انسان ((يريد ان يحيا ويُعترف به في شخصه ، انه يريد ان يكون هذا ، او ان يكون لا شيء ، اي ان تحرمه ال قوة المتحكمة به حرمانا نهائيا ، وهو في النهاية يرضى بالحرمان ، والسقوط الاخير ، ويعني الموت ... انه يؤثر ان يموت عزيزا رافع الرأس على ان يعيش عيشة الهوان)) . [٥]

وخصائص المتمرد تلك تتجلى في خطاب عروة زعيم الصعاليك الفقراء معلنا تمرده وخروجه على سلطة النسق القبلي :

اقيموا بني لبنى صدورَ ركابكم فإنّ منايا القوم خيرٌ من الهزلِ

فانكم لن تبلغوا كـــــــل همتي ولا أربتي حتى تروا منبت الأثلِ [٦]

يفتتح الخطاب بجملة فعلية مصدرة بفعل الامر (أقيموا ..) بما يحمله نسق الجملة الفعلية من دلالة تشير الى ضرورة حدوث فعل التغيير والخروج على القبيلة ، ليأتي الشطر الثاني حاملا نسق الثبات المعبر عنه بالجملة الاسمية المؤكدة بأن واسمها (منايا القوم) وخبرها (خير من الهزل) . فالتمرد والخروج خير من ثبات حالة الفقر والهوان ، طالما ان الموت هو الاخر حقيقة حتمية ثابتة لابد ان يواجهها الانسان ، وهكذا يأتي تفضيل الشاعر منحازا الى اختيار الموت على حياة الذل والفقر ، لان اللامنتمي الصعلوك يريد اختبار قدراته الذاتية (همتي ، أربتي) في عالم جديد بديل يزرع الامل (منبت الاثل) ، هو عالم الذات بعد ان يأس من عالم الجماعة (القبيلة) .

ويمكن ملاحظة ان ((صعاليك العرب جميعا سواء منهم الخلعاء او الأغربة او الفقراء المتمردون ، قد تخلوا عن فكرة ((العصبية القبلية)) وشقوا طريقهم في الحياة دون تقيد بقبائلهم ، او رجوع اليها ...

ومرد هذا الى احساس هؤلاء الصعاليك بأنهم مهضومو الحق ، مستضعفون في الارض ، وما نشأ من هذا الاحساس بالضعة ، وعن هذه الرغبة في التسامي من مركب نقص اتجه بهم الى التمرد.(٧) ومركب النقص كما يسميه (إدلر) يدفع الى التعويض بشكل تلقائي او ف يزيولوجي .. تحت حافز اثبات الذات ومبدأ ارادة القوة.(٨)

ويتضح مركب النقص ومحاولة التعويض عنه في خطاب الصعاليك الفقراء ، واشهرهم عروة بن الورد (ابو الصعاليك) اذ يقول :

ذريني اطوف في البلاد لعلنـــي أُخلّيك ِ او أغنيك ِ عن سوء مَحضـر ِ
فإن فاز سهم ٌ بالمنية لم اكـــن جزوعا وه ـــــل عن ذاك من متأخر ِ ؟
وان فاز سهمي كفكم عن مقاعد لكم خلف ادبار البيوت ومنظـــــــر ِ (٩)

يصدر الشاعر خطابه بفعل (الطواف) الذي يشكل بؤرة نفسية ودلالية عميقة تعبر عن هواجس النفس المتمردة القلقة في بحثها الدؤوب عن قيمتها الانسانية الضائعة ، وتحقيق وجودها وكرامتها التي اهدرتها الطبقية القبلية ، فهذا البحث المستمر يعادله قلق دائم على المستوى النفسي- ناتج عن الشعور بالتهديد المستمر ، وعدم الاستقرار ، وعدم تصالح الذات مع عالمها الاجتماعي ، حتى لتبدو حياة الصعلوك مثل سهام الميسر ، تضعه امام احتمالين اثنين يقرران مصيره ، فان فاز س همه ضمن الحياة الكريمة له ولعياله الصعاليك ، وان فاز سهم الموت ، كان موته موتاً شريفا من اجل الحياة والحرية .

وعن مركب النقص وحافز اثبات الذات يصدر خطاب الشاعر الخليع قيس بن الحدادية ، إذ يقول في مواجهة قتالية مع اعدائه – انتهت بموته- عائدا الى قصة خلعه وطرده :

أنا الذي تخلعه مواليه ْ وكلهم بعد الصفاء قاليـه ْ
وكلهم يقسم لا يباليـه ْ أنا اذا الموت ينوب غاليه ْ
مختلط اسفله بعالِيـه ْ قد يعلم الفتيان اني صاليه ْ
اذا الحديد رُفعِت اعاليه ْ (١٠)

يتشكل الخطاب من قطبين متضادين بينهما مسافة توتر حادة خلقت توترا نفسيا ودلاليا وثقافيا ً هما : (الانا) x (والهم) ، فالانا تتضخم لتعادل الهم قوة وسلطة ونفوذا ، وقد اسهم في تجلي حضور (الانا) علاقات النفي والطرد والتهميش ، التي تشير اليها المفردات (تخلعه ، قاليه ، لا يباليه) ، التي هي في الحقيقة السبب المباشر في الانفصال بين (الانا/والهم) . بحيث تصبح الانا سلطة مضادة

لسلطة الهم ، تتأسس على الشعور بالتسامي والاعتلاء والتفاخر بالهوية الفردية المغايرة للامنتمي الصعلوك ، التي انتجها وجوده المستقل خارج وجود القبيلة ،بعد ان كانت هويته متماهية في هوية القبيلة .

ذلك ان ((المغايرة حالة متعالية تنشأ اساسا عن وصول اوجه الاختلاف الى درجة قياسية تتحول بموجبها الانا الى ذات مغايرة للاخر، أي تتحول الى هوية تعي ذاتها باعتبارها هوية مستقلة مخالفة للاخر ومختلفة عنه)) . (١١)

ولا شك ان مركب النقص الذي يعانيه (الصعاليك السود) اكبر اثرا واشد ثقلا على نفسياتهم ، خاصة وان المجتمع القبلي كان يطلق عليهم مصطلح (الاغربة) ، لذا كان تمرد الصعاليك الاغربة سلطة مضادة تهدف الى كسر ثقافة التمييز العنصري ، والاعلان عن هوية الشاعر الاسود ، والانتقام لانسانيته الممسوخة التي شوهتها الانساق الثقافية المنمطة ، يقول الشنفرى :

اقيموا بني أمي صـــــــدورَ مطيكِم فاني الى قومٍ سواكم لأميّـــلُ

فقد حُمّت الحاجاتُ والليـــــلُ مقمر وشُدّت لطيّات مطايا وأرحلُ

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى وفيها لمن خاف القِلى مُتعزّل

لعمُركَ ما بالارض ضيقٌ على امرئ سرى راغبا او راهبا وهو يعقلُ (١٢)

يعارض الشنفرى ثقافة القبيلة ، ويظهر اغلبية لثقافة جديدة هي ثقافة التمرد على كل تمييز عنصري يسعى لتأسيس أفضلية لجماعة من الناس على حساب غيره م. واذا تأملنا الارتباط بين فعل التمرد (أقيموا بني أمي صدور مطيكم) في صدر البيت ، والاستغناء (فاني الى قوم سواكم لأميل) في الشطر الثاني ، ادركنا قيمة ارتباط الفعل بالدلالة ، من اجل البحث عن المعنى الانساني الذي يسعى اليه الشاعر ، فسلطة التمرد تسم و بالانسان فلا تبدو قيم ته مرهونة بالمحافظة على تقاليد القبيلة وانساقها الثقافية ، بل بالايمان بقدرة الانسان على تغيير هذه الانساق وتفكيكها ، فالدال أقيموا ، والمدلول \الرحيل، الدلالة الاستغناء ، لهما رهان فكري كبيرفي مجتمع لا يؤمن بهما .(١٣)

وفي هذا السياق يبرز نسقا (الزمان والمكان) ليعبرا عن الثقافة المضادة التي يؤسس لها خطاب الصعاليك ، والمغايرة لثقافة النسق القبلي . اذ ترد عبارة (والليل مقمر) التي تحمل دلالة مغايرة لدلالة الليل المألوفة في الشعر العربي القديم ، فهو ليس ليل العشق او الذكرى او الوحدة او الت أسي الذي يستدعي حالة السكون والتأمل .

وانما تحيلنا عبارة (والليل مقمر) الى (ثقافة الليل) في خطاب الصعاليك التي تحمل دلالة العمل والخروج من اجل الاغارة وكسب القوت بالقوة ، التي تسوغها عبارة (فقد حمت الحاجات) اي اقتضت

ضرورة العيش التمرد على القبيلة وقطع الطرق ليلا ، وتكتسب علامة (مقمر) دلالة اشارية مطابقة لدلالة الليل تشير الى الامل ، فهذا الليل المقمر يحمل الامل بالتغيير والسعي من اجل حياة افضل . وقد جاء التعبير عن الليل (بالواو الحالية) مما يدل على انه زمن حاضر آني ينفتح عما هو ممكن ومستقبلي، وهو زمن مضاد ومغاير للزمن في قصيدة القبيلة الذي يدور غالبا حول الماضي والذكرى .

ثم يأتي المكان في عبارة (وفي الارض منأى للكريم ..) و (ما بالارض ضيق على امرئ) ليعبر عن اللامألوف واللامحدود واللامتناهي ، فهو ليس مكانا محددا بديار القبيلة او اطلالها ، وانما هو الارض الواسعة التي لا تحدها حدود ، اي هو اللامكان ، وهذا يدلنا على ان الصعلوك اللامنتمي يؤسس لـ(ثقافة الحرية) في سعيه الدؤوب الى تحقيق استقلاله الذاتي والانعتاق من قيود القبيلة. فعلى حد تعبير (ولسون) : ((ان كل مأساة لا أنتمائية لم تتعدَ مأساة التعبير الذاتي)).[١٤]

اما الثنائيةِ الضدية (راغبا ، راهبا) فتشير الى قانون الرغبة والرهبة ، فالرغبة في حياة كريمة وعالم جديد بديل يمكن ان تتحقق بتغيير حالة الرهبة والخضوع امام سلطة القبيلة وانساقها الثقافية الظالمة – التي شوهت هوية الاسود واستعبدته – اي تتحقق بالخروج واعلان التمرد عليها الذي ينبأ بتصدع العصبية القبلية ، واثبات قدرة الانا الانسانية على تغيير واقع المجتمع القبلي وهدم بنائه التراتبي الذي همش السود والفقراء والخلعاء .

ولعل اهم خاصية للانا الصعلوكية اللامنتمية كما يرى الدكتور كمال ابو ديب ، انها أنا ((قلقة تبحث لا من اجل أنويتها بل من اجل تغيير العالم من اجل تدمير آثار التركيبة الطبقية للقبيلة ، من اجل ان تنقذ المسحوقين والمحرومين)) .[١٥]

واذا كان مجيء الاسلام قد خفف من عوامل ظهور الصعلكة بمبادئه السمحة العادلة التي انصفت الفقراء ، واستوعبت الاخر الاسود ، ونبذت العصبيات القبلي ة. فان السلطة الاموية بعثها للقيم الجاهلية واستناده ا في حكمها على نظام العصبية القبلية وانساقها التراتبية القمعية ، قد اججت الصراع مرة اخرى ، فاستمر تمرد الصعاليك في العصر الاموي ضد السلطة الاموية ، وكان السبب يعود الى الاختلال الاقتصادي والتفاوت الاجتماع ي والصراع السياسي والتناحر الحزبي على الحكم.[١٦]

ولعلنا نجد في خطاب الصعلوك الاموي مالك بن الريب نبرة احتجاج حادة تجسد الصراع بين اللامركزي (الصعلوك) / والمركزي السلطوي متمثلا (بالسلطة الاموية) :

أحقاً على السلطان أما الذي له فيُعطى وأماما عليه فيُمنـــــع؟

فشأنكم يا آل مروان فأطلبوا سقاطي فما فيه لباغيه مطمـــــعُ

وما انا كالعِير المقيم لاهلـــه على القيد في بحبوحة الضيم يرتعُ[١٧]

يشكل نسق الاستفهام الانكاري (أحقا على السلطان ؟) مدخلا رئيساً يكشف زيف السلطة المركزية ، من خلال اعتماد اسلوب الشرط القائم على ثنائية ضدية (اما الذي له فيعطى \ واما ما عليه فيمنع) مما يفضح سياستها المالية غير العادلة، في فرض الضرائب على القبائل الفقيرة المعادية لها ، وحرمانها من العطاء من بيت المال ، ثم يوظف الشاعر تمثيلا حيوانيا يصور امتناعه وتساميه على الخضوع للسلطة ، ورفضه قيود الطاعة (وما انا كالعير المقيم لاهله ...) ويشير باحث معاصر الى ان ((ظاهرة التهميش هي نتاج لبنى اجتماعية ما ، كما ان الهامشي هو فاعل اجتماعي يؤسس لثقافة خاصة ، ويبني هويته عبر تطوير حركة مضادة لحركة المهيمنين ...فالثقافة المركزية تفرز من رحمها نقيضها الذي سيعيش على هامشها)).[١٨]

وهذا ما اكده ولسون في قوله ان اللامنتمي ((يريد ان ينجو من التفاهة الى الابد ، وان تتملك .هـ ((ارادة القوة)) من اجل حياة اكثر وفرة .. وفوق كل ذلك فانه يريد ان يعرف كيف يعبر عن ذ اته ، لانه يستطيع بواسطة ذلك فقط ان يعرف نفسه وامكانياته المجهولة))[١٩] .

وقد عبر الصعاليك الامويون عن سلطة الذات المتمردة عن طريق تصوير غاراتهم وغزواتهم وقطعهم الطرق للنهب والسلب ، وتح ديهم للولاة الامويين وعمالهم وتهديدهم لهم ، وما عملوا من اشاعة الفوضى ، والاخلال بنظام الحكم الاموي الظالم الذي سلبهم حقوقهم ، كما نرى في خطاب مالك بن الريب مهددا عامل الامويين :

فاءني سوف يكفينيك عزمي ونصّي العيس بالبلـد القفارِ

اذا ما حال روض رباب دوني وثـلـيثٌ فشأنـــــك بالبكارِ

وانياب سيُخلفهنّ سيفـــــي وشرّات الكميت على التجــارِ[٢٠]

فالشاعر يستعرض امكانياته الذاتية ووسائله الدفاعية التي تتمثل في :

(قوة الذات \عزمي) ، والناقة الفتية ، والسيف ، والفرس الكميت) . وهي وسائل ناجغ كفيلة بتحقيق الحياة الكريمة عبر الاغارة على قوافل التجار ونهب الابل .

وقد تركت الاضطرابات في الحياة السياسية العامة ما يقابلها في النفوس، فكثيراً ما يتوافق الاضطراب في الحياة الاضطراب في (الانا) العامة بمثيله في (الانا) الخاصة للفرد ، بحيث يشعر بعض افرادها بعدم الانتماء اليها وضرورة الخروج عليها .. ففي الفترات التي تختل فيها القيم تضيع المحجة ، وتغيم المعالم الواضحة للحياة ، ولا يعرف الفرد على وجه اليقين من ينصر ومن

يخذل فيميل الى هذا الحزب حينا والى ذاك حينا آخر ومرد ذلك الى استعار روح التمرد والرفض اللذين يجعلان بعض النفوس القلقة او الثائرة أعداء الامر الواقع ، وبالتالي يشعر اصحابها بحس من عدم الانتماء .[٢١]

ومثال على ذلك الصعلوك السياسي الاموي عبيد الله بن الحر الجُ غي الذي كون جيش اً من الصعاليك وبدأ يغزو المدن ، ولا يتعرض الا للسلطة ورجالها وبيوت مالها ، فيأخذ اموال السلطان ويفرقها على صعاليكه ، و قد ادى به طموحه السياسي الى التقلب بين الاحزاب فمرة مع الشيعة واخرى ضدهم ، ومرة مع الامويين ثم ينقلب عليهم، فيناصر الزبير ين ، وفي النهاية يخرج عليهم فيهدد ابن الزبير ويتوعده بغارات مستعرة يشنها عليه بأفراسه القوية وصعاليكه الكماة : [٢٢]

فلا تحسبني ابن الزبيـر كناعس ٍ اذا حلّ أغفى او يقال له ارتحلْ

فإن لم ازرك الخيل تردي عوابساً بفرسانها لا أدعَ بالحازم البطلْ

وان لم ترَ الغارات من كل جانبٍ عليك فتندم عاجلا ايها الرجلْ

فلا وضعت عندي حصان قناعه ا ولا عشتُ الا بالامانـي والعللْ

اذ ياتي تهديد اللامنتمي المتمرد مشحونا بنبرة التحذير والانفعال والتوتر الذي جعل قراءة الخطاب مشدودة بين طرفين متضادين – بحيث يجب تلقيها كاملة – يشيران الى نسقي النفي والاثبات (فلا تحسبني .. \اذا حل اغفى او ..) ، (فان لم ازرك الخيل تردي عوابسا \ لا ادع بالحازم البطل) و (وان لم تر الغارات ..\ فتندم عاجلا ايها الرجل) . فافعال النهي تآزرت مع افعال الشرط لتجسيد الصورة الخطابية للتهديد والغضب ، حتى اكسبت الخطاب قوته وسلطته على المخاطب ، مما جعل للذات المتمردة (سلطة) تفرض بواسطتها إرادتها ووجودها وشخصيتها امام سلطة النسق الجمعي ؛ في سبيل تغيير واقعها المأزوم والخروج من بؤرة التهميش والاستلاب .

- جماعة الانومي والانزياح القيمي :

يمكن ان ينطبق على الجماعة الصعلوكية اللامنتمية الى بنية المجتمع المفهوم (أنومي) وهو مصطلح قدمه عالم الاجتماع الفرنسي (اميل دوركايم) ، ويعني (لا عرف \ لا معايير) . ولقد اخذت كلمة Anomie من الكلمة الاغريقية Nomi او معايير . ولا يعترف هؤلاء الافراد او تلك الجماعات الانومية بأية اعراف او قوانين او قواعد للمجتمع . وعليه فأن عصابة اللصوص قد تتكون من الافراد الذين ليسوا منحازين لفئة معينه ولكنهم أنومي ون لا يلتزمون بمعايير المجتمع . ويتم اتباع هذه الثقافات الفرعيه لقواعد سلوكية معينة الا ان هذه القواعد تتغاير مع القواعد الموجودة في المجتمع الكبير .

وترتبط ظاهرة الانومي بالفترات التي تتفكك فيها العلاقات الاجتماعية ويفقد الناس القدرة على رؤية الوعي الجماعي ، بحيث يكون هناك معنىً مقبولاً عاماً . ويرى (آرثر ايزابرجر) ان ظاهرة الانومي هي نتيجة ليس لان هناك افرادا بأعينهم غير قادرين على ايجاد مكان مناسب لهم في مجتم عاتهم ، بل لان تركيبة المجتمعات والترتيبات التي توفرها لهم غير كافية . [٢٣]

وتكمن نقطة الالتقاء بين مفهوم اللامنتمي عند ولسون ومفهوم الانومي عند دوركايم في فكرة الخروج على معايير المجتمع والتطرف وتحقيق الانزياح عن قيمه السائدة .

اذ يرى (ولسون) ان مفهوم اللامنتمي يكمن بأن اللامنتمي ((ليس مفكراً ، فهو يقبل العيش ، وانما يرفض قيم هذا العيش)).[٢٤]

ومصطلح الانومي عند (دوركايم) يعني ايضا لا معايير : اي لا اعراف ولا قيم .

واذا رجعنا الى خطاب الصعاليك نلاحظ انهم يعبرون عن هذه الروح الانومية الجماعية التي صنعت لنفسها وجودا ضديا خارج كيان القبيلة ، استعاضت به عن الانتماء اليها واللوذ بحماها ، وقد وضع اللامنتمون الصعاليك لمجتمعهم الانومي المصغر قواعد سلوكية وقيما ضدية مغايرة للقيم القبلية النسقية ، معتمدين مبدأ (الانزياح) عن سياق النظام القبلي . على اعتبار ان الازاحة ((لا تتم عادة الا ضمن سياق محدد لا يسهم فحسب في تحديد طبيعة هذه الازاحة وبلورة آلياتها ، ولكنه يقوم ايضا بدور فعال في صياغة ملامح الخطاب الجديد ، وفي تحديد علاقته بالعالم الذي يظهر فيه)).[٢٥]

وهكذا تصبح قيم النظام القبلي النسقية هي القاعدة السياقية الجماعية ،وقيم الانومي الصعاليك (الانسانية) هي الانزياح الفردي الخارج عن هذه القاعدة والمضاد لها . فوضع الانومي الصعاليك بالنسبة الى نظام القبيلة المجتمعي يتفق مع وضع اللامنتمي الذي عبر عنه الفيلسوف الدنماركي الوجودي (ت ١٨٥٥م) (سورين كيركغارد) في مقولته : ((اذا اردت ان تنفيني ضعني ضمن نظام ، انني لست رمزا حسابيا انني انا)).[٢٦]

فالقبيلة بالنسبة للصعلوك مج رد (نظام) طبقي شمولي جبري ، ادى الى تهميش طبقة الصعاليك ؛ مما جعل الصعلوك اللامنتمي يشعر بالنفي التعسفي الدائم .

ولعل اول شيء حققه الانزياح القيمي الصعلوكي هو تقويض نظام البناء الابوي (البطريكي) ، الذي يعتمد آلية التراتب الطبقي وما يلحقه من ثنائيات : الهيمنة والتهميش والتسلط والخضوع ، والغنى والفقر . واقامة بناء اجتماعي يعتمد آلية المساواة والعدالة الاجتماعية ، فالصعاليك طبقة

واحدة تتمثل بالجماعة الانومية اللامنتمية التي يتمتع افرادها بالحقوق والواجبات والغنائم نفسها ، دون تمييز بينهم او افضلية لاحدهم على الاخر .

وهذا ((ما اوجد بين الصعاليك معنى مشتركا يعبر بالتضامن الفعلي او المفترض مع شعور جنيني بانهم مجتمع مصغر – يختلف عن المجتمع القائم ، وبالتالي فقد تميزوا بفقد الاحساس بالعصبية القبلية التي كانت قوام المجتمع)).[٢٧]

يقول عبيد الله بن الحر الجعفي معبرا عن الروح الجماعية للانومي الصعاليك :

ولليل ابناءٌ وللصبـــح اخوة ٌ وابناء ليلي معشري وقبيلـي

اذا نطقوا لم يسمع اللغو بينهم وان غنموا لم يفرحوا بجزيل ٍ[٢٨]

ويقول :

اذا ما غنمنا مغنماً كان قسمةً ولم نتبع رأي الشحيـح المتارك

اقول لهم كيلوا بكمّة بعضكـم ولا يجعلوني في الندى كأبن مالك[٢٩]

اذ يستبل الشاعر الجماعة القبلية بالجماعة الانومية (الصعاليك) الذين يصفهم بقوله (ابناء ليلي)، موضحا القيم الضدية التي تميز مجتمعهم الصعلوكي المصغر عن مجتمع القبيلة مثل : (التضامن ، والاخوة ، وا لنصرة ، والتعاون ، والوحدة ، والتسامي ، والكرم) ، والاهم من ذلك (المساواة وتحقيق العدالة الاجتماعية) بينهم في المكانة والقيمة والمال ، دون مراعاة لنسب او حسب او تفاوت طبقي او تعصب عرقي ، (فالصعاليك طبقة واحدة)، فهم يقتسمون ما يغنمون من المال والابل بينهم بالتساوي ، مما ينم عن حس مبكر بقيم الاشتراكية والتضامن الاجتماعي والاقتصادي ، الامر الذي مكنهم من اجتماع كلمتهم وتحقيق الوحدة بينهم ، التي عجزت السلطة والقبيلة عن تحقيقها في ظل الواقع السياسي والاجتماعي المضطرب .

وهذا يؤكد ان الذات الصعلوكية المهمشة ((ذات فاعلة بإمكانها تأسيس ثقافتها واثبات هويتها ، اذ بامكانها تجسيد أشكال من الفعل الجماعي)).[٣٠]

فقد اضفت جماعة الانومي الصعاليك على القيم المعروفة معان جديدة انسانية محققة بذلك ا لانزياح عن القيم القبلية النسقية ، فالغنائم والاموال التي يحصل عليها الصعلوك بالقوة والشجاعة والغزو ، يقسمها على الفقراء والضعفاء من الصعاليك ، وليست غايته من هذا الكرم الانساني هي انتظار المدح والثناء ممن يشملهم بعطائه ، وانما كرمه نابع من انسانيته واريحيته ورغبته في مساعدة الفقراء ، حتى لو افنى في سبيل ذلك ماله كله . وبهذا يحقق الصعلوك انزياحا عن قاعدة (الأثرة) التي تحكم العلاقات بين افراد القبيلة ، الى قيمة (الايثار) التي تحكم العلاقات بين جماعة الانومي

الصعاليك .وفي ذلك يقول عروة بن الورد (ابو الصعاليك) موضحا اختلاف فلسفة الصعاليك عن فلسفة القبيلة :

اني امرؤ عافي انائي شركـــةٌ وانت امرؤ عافي انائك واحـــــــدُ
اتهزأ مني ان سمنتَ وان ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهدُ
اقسّم جسمي في جسوم كثيرةٍ واحسو قراح الماء والماء بـــاردُ[٣١]

يتكئ الشاعر على اسلوب المقارنة بينه وبين الاخر الذي يمثل اختزالا للمجتمع بقيمه القبلية النسقية ، مما يعني ان صراعه يتمركز مع الاخرين (الاغنياء) الذين يعكسون صورة المجتمع بقيمه السلبية ، ومن خلال اسلوب المقارنة يشخص ((التعارض الحدي بين قيم الصعلوك وقيم القبيلة ، بين الايثار والاثرة ، بين الانظلام والظلم ، ويبرز هذا التعارض بواسطة الصورة الكنائية لوعاء الزاد الذي لا يقربه سوى صاحبه ، والوعاء المقابل الذي يبيحه صاحبه للناس جميعا فلا يبقى له شيء ، صاحب الوعاء الاول يزداد سمنة وترهلا ، مقابل صاحب الوعاء الثاني يزداد هزالا ونحولا لانه أثر الحق ، والحق مجهد لصاحبه)).[٣٢]

فالصعلوك لا يريد الغنى من حيث هو غاية يقف عندها ، وانما يريده ليكون وسيلة لتحقيق هدفه الانساني والاجتماعي وهو تحقيق التوازن بين طبقات المجتمع ، فقيمة الكرم عنده قيمة انسانية هدفها الوفاء لحقوق الفقراء ونصرة المظلومين والضعفاء ؛ لذا يبقى الصعلوك فقيراً على الرغم من غاراته في السلب والنهب . يقول عروة معللاً سبب فقره ببذل ماله للفقراء [٣٣] :

اذا قلتُ قد جاء الغنى حال دونه ابو صبيةٍ يشكو المفاقرَ اعجفُ
له خلةٌ لا يدخل الحـــق دونها كريم اصابته خطوبٌ تجـــــرفُ[٣٤]

اذ تبدو سلطة الانا الاعلى (الضمير) دافعاً تضامنياً ومحفزاً نفسياً على البذل والعطاء ، يردعه عن ايثار الذات ، ويدفعه الى إثرة الآخرين الفقراء .

ويقول ذاكراً كرمه وكثرة اضيافه وقلة ماله :

يريحُ عليّ الليلُ اضياف ماجدٍ كريمٍ ، ومالي سارحاً مالُ مقترِ [٣٥]

من هنا نرى ان كرم الصعلوك كرم انساني خالص ، يختلف عن الكرم بمعناه القبلي النسقي ، الذي اشار اليه الغذامي في معرض حديثه عن تحول القيم وتحول الكرم من قيمته الانسانية الاخلاقية الى قيمة فردية نفعية تخضع لشروط الرغبة والرهبة وابتزاز الآخر واستجداء العطاء ، حينما صار الكرم الفحولي الشعري كقيمة سالبة يتولد عنها كائن ثقافي غير انساني وغير متسامح ، ذلك ان الممدوح (الكريم) يبذل امواله للناس ويكرم الشعراء في سبيل شراء ال حمد والثناء وصفات السؤدد الثقافية

المقولبة التي يؤمنها له الشاعر المداح ، وهكذا تحول الكرم الى قيمة للتباهي وعلامة على الغنى وامتلاك شروط السؤدد والزعامة والسلطة[٣٦] .

وهذا يوصلنا الى تغاير آخر في منظومة القيم الانومية ، وهو انزياح الصعاليك عن قيم الفحولة القبلية التي تصور الشاعر او الممدوح بطلاً شعرياً فحولياً خارقاً يتمتع بالصفات النسقية المثالية التي تقوم على النسب والحسب والغنى والاستكبار والقوة والظلم والسيادة والمجد ، الى قيم الصعلكة الانسانية التي ترسم للصعلوك صورة واقعية ، فهو انسان عادي متوا ضع يجوع ويعرى ويكافح ويخاطر من اجل تأمين لقمة العيش ورد غوائل الجوع والهلاك ، وهو مع ذلك انسان كريم قوي النفس عفيف شجاع يتحمل تقلبات الحياة في حلوها ومرها . وهذا ما نجده في خطاب عروة :

وإني لأثوي الجوع حتى يَملَّني فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغتبقُ الماءَ القراح فأنتهي إذا الزادُ أمسى للمُزلَّج ذا طعمِ
أردُّ شجاع البطن قد تعلمينه وأوثرُ غيري من عيالكِ بالطُعمِ

ونجده ايضاً في خطاب القتال الكلابي مقرراً صفات الصعلوك الانسانية الواقعية من عزم واباء وشجاعة ونبل وعزة نفس وقدرة على التحمل :

إذا همّ هماً لم يرَ الليـــــلَ غمّةً عليه ولم تصعب عليه مراكبــهُ
قرى الهم إذ ضافَ الزّماعَ فاصبحت منازله تعتسَ فيهـــــا الثعالبُ
جليدٌ كريمٌ خيمُهُ وطباعـــــــهُ على خير ما تبنى عليه الضرائبُ
إذا جاع لم يفرح بأكلة ساعـــــــةٍ ولم يبتئس من فقدها وهو ساغبُ
يرى ان بعد العسر يسراً ولا يـرى إذا كان يسرٌ انـــه الدهرَ لازبُ [٣٨]

من هنا نرى ان ((الرجل في قصيدة القبيلة له حضور خاص يتجلى في فروسيته وفحولته ونأيه عن مظاهر الحياة الهامشية ، وكأنه صورة لم ثال او بطل ملحمي . ولكن الرجل في قصيدة الصعاليك انسان عادي يؤدي دوره في حياة واقعية)) [٣٩] .

والحديث عن الرجل يستدعي الحديث عن المرأة ، فاذا كانت قصيدة القبيلة تظهر الرجل فحولياً سادياً استحواذياً ، يتصاغر كيان المرأة امامه ويصبح موضوعاً للتملك والاستحواذ ، وهو كيان انموذجي صنمي مثالي يجمع الصفات الجمالية للمرأة الاجمل والاكمل ، وهي امرأة مشيّأة فهي غزالة وبقرة وحشية وشمس وشجرة ، فإن المرأة في خطاب الصعاليك قرينة النفي والنأي والاغتراب والفقر ، وهي كيان حي واقعي يشاركه معاناة الحياة ، وغالباً ما يتوس ل الشاعر الى تقديمها عبر

تقنية المشهد الذي يتخذ من عنصر الحوار أداة لكشف هواجس المرأة وهواجسه ايضاً ، يقول عروة :

أرى ام حسان الغداة تلومني تخوّفني الاعداء والنفسُ أخوفُ
تقول سليمى لو أقمت لسرّنا ولم تدرِ اني للمقـــــام أطوّفُ
لعل الذي خوفتنا من أمامنا يصادفــه في اهلـــــه المتخلفُ[٤٠]

فالحوار يجعل المرأة معادلاً انسانياً (او قناعاً) يطرح رؤية الشاعر ، ويكشف هواجسه النفسية العميقة المختبئة خلف الشخصية الصعلوكية المتمردة المغامرة ، فهما (المرأة والشاعر) يشتركان مشاعر الخوف والنأي والاغتراب والنفي والفقر والمخاطرة (تخوفني/النفس أخوف ، أقمت لسرنا / للمقام أطوّف ، لعل الذي خوفتنا من امامنا /يصادفه في اهله المتخلف) ، حتى كأن نفس الشاعر ذاته هي التي تلومه وتخوفه وتدعوه الى الاستقرار ونشدان الامن .

ولعل اكبر انزياح حققه خطاب الصعاليك الا نوميين هو النأي عن مظاهر الحياة الاجتماعية المدنية وعدم الالفة للناس او التآلف مع المجتمع ، والانزياح نحو نزعة ضد مجتمعية وضد مدنية ، جعلته يعتزل المجتمع وينبذ الاهل ويبتعد عن الناس ، ويتجه نحو حياة التشرد والتوحش وحياة الفطرة والبدائية في احضان الطبيعة مخ تفياً بين الوحوش والذئاب والضباع فهم اهله وصحبه ، يقول الشنفرى :

ولي دونكم اهلون : سيّدٌ عَملسٌ وأرقطُ زهلولٌ وعَرفاءُ جيألُ
هُمُ الاهلُ لا مستودع السرّ ذائعٌ لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخذلُ[٤١]

فالجدل في البيتين السابقين جدل من اجل القيمة التي دفعت الشاعر الى اعتزال المجتمع واستحضار اهلون جدد وهم (الذئب/سيد عملّس ، والنمر /أرقط زهلول ، والضبع /عرفاء جيأل) وهذه الحيوانات الثلاثة علامات دالة على فلسفة الحياة الجديدة ، فالذئب علامة تدل على المكر ، والدلالة هنا تتمثل في كيفية الاحتيال على المجتمع الانساني للثأر منه ، والنمر علامة تدل على سرعة العدو وخفة الانقضاض على الفريسة والدلالة هنا هي كيفية اصطياد الحقوق بشراسة ، والضبع علامة على المهارة في الهرب لحظة الاحساس بالخطر وكيفية الاحتماء والدلالة هي القدرة على تحمل الحياة داخل الكهوف ، فضلاً عن ان هذه العلامات الثلاث هي النقطة التي يلتقي عندها ظاهر المعنى مع باطنه ، فعالم الحيوان والطبيعة عند الصعاليك هو سبيل للحياة ، وليست العزلة سوى نوع من الوعي الحياتي بقيمة الانسان ، فلعل الحرية النفسية الجديدة تكون سبباً في استعادة صفاته الانسانية

التي سلبتها القبيلة ، ثم يطالعنا الشاعر بالقيم الايجابية لمجتمعه الجديد وهي : (حفظ الاسرار ، وستر العيوب ، والعدل)[٤٢] .

واختيار حياة البدائية والتوحش حالة عامة اتصف بها الصعاليك ، وقد اكثر الصعاليك الامويون من الحديث عنها ، ومنهم الشاعر الاحيمر السعدي إذ يقول :

عوى الذئبُ فاستأنست بالذئبِ إذ عوى وصوّت انسانٌ فكدتُ أطيرُ

رأى الله أني للأنيـــــــس لشانىءٌ وتبغضهم لي مقلةٌ وضميرُ[٤٣]

فـ (الذئب) علامة تحقق انزياحاً في دلالتها العرفية ، فبدل من ان تدل على المكر والاحتيال وفقدان الامن ، فانها تدل هنا على الالفة والانس والاحساس بالامن والحماية ، في حين لا تدل علامة (الانسان) على الانس والالفة والحب والتعاطف كما هو شائع في السياق العرفي ، وانما يشكل الانسان (وصوته) هنا مصدر خوف وقلق بالنسبة للصعلوك ، فبينما يبلغ التوحد مع الحيوان (الذئب) حداً بالغاً من الانسجام والتفاهم ، يبلغ التعارض والكره وسوء التفاهم مع الناس درجة كبيرة لانهم مصدر خوفه وسبب تشرده وتصعلكه .

وقد نستنتج ان الصعاليك يحلون ثقافة التوحش والذئبية محل الثقافة المجتمعية المدنية ، ويمكن تعضيد هذا (الاستنتاج بما ورد في المعاجم العربية [*] من تعريف الصعاليك ووصفهم بأنهم (ذؤبان العرب) تشبيهاً لهم بالذئاب في طريقة عيشهم القائمة على الاقتناص والمكر والتوحش بعيداً عن الناس .

وقد أشار كولن ولسون الى عودة اللامنتمي الى مرحلة الذئب ، اذ يقول في تحليله لمقالة (هاري هاللر): ان الانسان الذئب هو المتوح ش الذي يحب العالم الثاني : عالم الظلام ، والذي يفضل الانطلاق والخروج على القانون... ويعيش الانسان المتحضر والانسان الذئب على عداء دائم[٤٤].

ولعل حياة الصعاليك الصعبة القائمة على معاداة المجتمع والمخاطرة والغزو والاغارة ، جعلتهم ينتهون الى الاحساس بتهوين الموت ، فهم يواجهونه وجهاً لوجه كل يوم ، الامر الذي أدى بهم الى الانزياح عن (دلالة الموت) المألوفة الى دلالة اخرى (أنومية صعلوكية) ، فهو ليس نهاية الحياة كما انه ليس الانهزام او السقوط أمام القدر ، بل هو مواجهة الاقدار واكتشاف الحقيقة ، والخلاص من حياة الزيف والذل والتحرر من القهر والاستلاب ، وتحقيق الكرامة الانسانية .

فموت الصعلوك هو موت بعزة ، اذاً هو (الحرية) التي افتقدها والتي يسعى جاهداً للبحث عنها ، فالموت يساوي الحرية ، والحرية تساوي الموت ، وهما معاً يوصلاه الى الحقيقة ، فهما نصر للصعلوك لا هزيمة واندحار ؛ وبذلك يواجه الصعلوك قيم الجبر القبلي بقيم الحرية الصعلوكية .

وهذا ما نجده في خطاب الشنفرى عندما واجه الموت، فقد بلغت نقمته على الهيئة الاجتماعية حداً يرفض معه ان يدفن كما يدفن سائر الناس، بل نراه يصر على النهج التمردي وتحدي المجتمع في كل شيء ممكن ، ويصر على رفضه مؤسسات وقيم وتقاليد ومقدسات وطقوس ، وهذا النهج يفضي بلا ريب الى تدمير البنى التي تؤسس التجمع القبلي ، فقد أجاب ع ن سؤال أعدائه من السلاميين حين أرادوا قتله : أين نقبرك ؟ بقوله(٤٥) :

لا تقبروني ان قبري محرّمٌ عليكم ، ولكن أبشري أم عامر

اذ يصدر خطابه بـ (لا الناهية) بما تتضمنه من الرفض القاطع القائم على الامر والنهي بقوة ، فهو يرى نفسه قادراً على الاختيار وعلى فرض رأيه على أعدائه حتى في لحظة الموت ، انه يرفض الموت المألوف ، ويرفض حدود القبر الضيقة ، ويرفض طقوس الموت الرتيبة ، ويريد ان ي كون موته موتاً مختلفاً خارجاً على النسق ، ويدفع هول لحظة الموت الرهيبة بحرية الا ختيار ، فيختار ان يموت حراً ولا يدفن بل يبقى ج ثمانه طلقاً عسى ان يكون طعماً لرفيق ه الضبع (أم عامر) ؛ ليسد جوعه كما كان في حياته يسد جوع صعاليكه ويؤثرهم على نفسه .

أما صديقه تأبط شراً فيرى عندما يواجه الموت انه أمام خيارين :

هما خطتا ، إما إسارٌ ومِنّـةٌ وإما دمٌ ، والقتلُ بالحر أجدرُ (٤٦)

فالخيار الاول هو حياة الاسر والذل (إسار ومنة) ، والخيار الثاني هو القتل (دم) ، ولكي يحقق حريته في الاختيار يفضل ان يختار الموت قتلاً (لانه أجدر بالحر) ، على ان يعيش أسيراً ذليلاً بين أعدائه ، وبهذا يكون قد انتصر لحريته الانسانية في اختيار الموت ، وواجه جبرية الموت وحتميته بحرية الاختيار وإمكانيته .

والكلام السابق يحيلنا الى رأي جان ماري في قوله :"ان الحرية تنمو على أساس من الموت" (٤٧).

ويتجسد ذلك ايضاً في قول عروة بن الورد :

مخافةَ أن أحيا برغمٍ وذلةٍ وللموت خيرٌ من حياةٍ على رَغمِ (٤٨)

وفي قول الصعلوك الاموي أبي النشناش التميمي :

فعش معذراً او مت كريماً فإنني

أرى الموتَ لا يبقي على من يطالبه (٤٩)

فما دام الموت هو الحقيقة الحتمية التي سينتهي اليها مصير الانسان ، يؤثر الصعلوك ان يموت بشرف وعزة وهو يسعى الى تحقيق ذاته وفرض وجوده ونيل حريته ، على الاستسلام لحياة الذل والاستعباد .

ويقدم كولن ولسون تلخيصاً مركزاً لرأي اللا منتمي في الموت من خلال قول لورنس : "أما الموت فإنه أحسن أعمالنا ، وآخر أخلاص حر يمكننا ان نقوم به ، في انعتاقنا الاخير"(٥٠).

ولنتأمل لحظة الموت الحتمية في خطاب مالك بن الريب وهو يواجه انعتاقه الاخير نحو الحرية :

ألا ليت شعـــري هـل أبيتـنَّ ليلـــةً بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركبُ عَرضَهَ وليت الغضــا ماشى الركــاب لياليــا

ألـم ترني بعــت الضلالـــة بالهـدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

لعمري لئن غالت خراسـان هامتــي لقـد كنت عن بابيَ خراســان نائيــا(٥١)

. .....

فيا صاحبَـــــي رحلي دنا الموت فأحفرا برابيةٍ إني مقيمٌ لياليـــــا

وخطا بأطراف الاسنـــة مضجعي ورُدّا على عينيّ فضلَ ردائيـــــا

ولا تحسداني بارك الله فيكمـــــا من الارض ذات العرض ان توسعا ليا

تذكرتُ من يبكي عليّ فلم أجـــد سوى السيفِ والرمــح الرّدينيّ باكيا

واشقر محزونٍ يجّر عنانـــــهُ الى الماء لم يترك له الدهر ساقيـــــا

يستند الخطاب على تقنيتي (الاسترجاع ، والاستشراف) ، حيث يوظف الشاعر تقنية الاسترجاع لاسترجاع أحداث ماضية ، عبر التذكر الذاتي النفسي الذي يعيده الى زمن الماضي الفطري والاستغراق في ذكريات حياته البسيطة ، وهذا حتماً يستدعي المكان (جنب الغضا) الذي يأخذ صورة تكرارية في الخطاب ، مما يشير الى ان هذا الاستدعاء للمكان يمثل احتماءً نفسياً من ثقل الواقع.

الا انه سرعان ما يعود الى اللحظة الحاضرة (أصبحت في جيش ابن عثمان غازيا) ليواجه مصيره المحتوم ؛ مما يكشف عن حجم اغترابه وتشتته النفسي بين الماضي والحاضر .

ثم يتكئ الشاعر على تقنية الاستشراف لاستباق أحداث قادمة قبل أوانها ، الا وهي (أحداث الموت) ، فالاستشراف جاء كاستجابة انفعالية قلقة جعلت الموت نبوءة مستقبلية تعلي صوتها على صوت الذاكرة الماضوية ، وتفصح عن المسكوت عنه المخبوء وهو ان جذور الصعلوك تنبت في المستقبل وليس في الماضي ، فقد انقطع عن الماضي بكل ما فيه من خير وشر ، وانطلق نحو المستقبل في بحثه عن كينونته وحريته ووجو ده ، ولهذا الاستشراف بعد ثقافي يضمر مرجعيتين ، مرجعية دينية تعود الى الحقيقة التي لابد ان يواجهها الانسان ، وهي حقيقة الموت وحتميته (فالموت حق) ، ومرجعية خطابية تشير الى جعل الموت فسحة من التأمل الذاتي تراجع فيه الذاتُ نفسها عبر أرجاء المعنى ، وتقديم حيثيات اخرى تتصل بالموت وطقوسه ، ولكنها ليست طقوسا قبلية جبرية ، وانما

هي طقوس صعلوكية أنومية اختيارية ، تفرض ارادة الشاعر الصعلوك وحريته في الاختيار ، فهو يريد ان يدفنه رفيقاه (وليس أهله او قبيلته) في مكان مرتفع (رابية) في هذه الارض الغريبة (خراسان) .

ويستخدم الشاعر في اختياره لطقوس موته عدة دوال ينتقي ها من الواقع (الرابية ، أطراف الاسنة ، فضل ردائياً ، الارض ذات العرض ، السيف ، الرمح ، أشقر محزون ، الماء ، الدهر) ، ويعمد الى تشفيرها لتتخطى مدلولاتها ، وتصبح معادلات موضوعية ترمز الى ذات الصعلوك وصفاته الشخصية والنفسية وطبيعة حياته الدائرة حول الصراع من اجل الحرية والتخلص من الفقر والتهميش رغبة في التعالي على واقعه المتدني ، فهي تشير على التوالي الى : (عزة النفس ، الشخصية الفردية، الفقر والتواضع، الحرية ، الصراع والتمرد ، قوة الارادة ، الحياة ، الموت).

ومن الملاحظ ان الامر الذي أوقف الشاعر عن تذكر الماضي هو قرب الموت (دنا الموت) ، فقد أيقظه توقع الموت – على حد تعبير ولسون – غير ان يقظته كانت متأخرة جداً ، الا انها أعطته على الاقل فكرة عن معنى الحرية . الحرية هي الفكاك من اللاحقيقة ... وقد وضع سارتر ادراك ميرسول في عبارة (الحرية هي الرعب) وهو يلاحظ في ((معاهدة الصمت)) انه لم يشعر بكامل حريته وحياته افي أيام الحرب ، وهو في خوف دائم من الموت ، انه لمن الواضح ان الحرية ليست كونك تفعل ما تريد ؛ انها شدة الارادة ، وهي تظهر في اي ظرف يحدد الانسان ويبعث الحياة في ارادته[٥٢] .

ولعل لحظة الموت المرعبة جعلت مالك بن الريب يتأمل في حقيقة الموت ، على انه ليس موتاً فقط ، انه موته هو ، وعليه ان يشعر بكامل حريته المرعبة وهو يختار طقوس موته .

فالموت بالنسبة للصعلوك هو مواجهة الحقيقة وفرض الحرية والارادة ، والتخلص من حياة الزيف واللاحقيقة ، وفي ذلك انزياح عن دلالة الموت النسقية المألوفة .

الخاتمـة

وبعد ... فقد نمت هذه الثقافة المضادة للامنتمي الصعلوك في ظل هيمنة الثقافة الامتثالية ، وسيادة الروح المستسلمة امام السلطة القبلية والسلطة السياسية الحاكمة كما عبرت عنها القصيدة التقليدية القبلية الخاضعة لعمود الشعر ؛ لذا كان تمرد الصعاليك على النظام الاجتماعي والسياسي وعلى المعيار الفني انزياحاً اجتماعياً وثقافياً وفنياً في آن واحد .

فقد اسقط الصعاليك كافة المرجعيات ، وابدعوا خطابهم الشعري من منطلق القطيعة مع الخطاب الشعري التقليدي القائم على النمذجة والتقاليد ؛ لأنهم أرادوا ال تأسيس لرؤيا جديدة للواقع ، رؤيا قائمة على مبدأ التضاد واللأنتماء والتمرد ، لا الامتثال والخضوع للسلطة .

فاللانتماء والتضاد مع السياق العام او النسق الجمعي هو الذي يغذي المقدرة على تجاوز السياق والانزياح عن النسق ، إذ ان كسر المعيارية الاجتماعية والثقافية و المعيارية الفنية يعني كسر النسق وخلق الانزياح والتغيير الثوري المستمر .

وقد نستنتج بمحض الاستنباط لا اليقين ان خطاب اللامنتمي الصعلوك لا يمكنه من خلال نزعته الانومية اللامعيارية وغير القارة ، الا ان يكون اختباراً للذات في قدرتها على تجاوز النسق الجمعي ، بحيث يبدو الخطاب الصعلوكي مشروعاً مستقبلياً ثورياً غير مكتمل يعبر عن الحاجة الدائمة الى التغيير والتمرد والى اكتشاف دائم للمستقبل ، أي التحريض على الثورة ضد الانساق الاجتماعية القارة والتقاليد السلطوية الفوقية ، كما هو الثورة على التقاليد الفنية القارة ف ي القصيدة القبلية التقليدية .

ومن هنا تجاوز الصعاليك مبدأ عمود الشعر واسقطوا المقدمات الطللية واستعاضوا عن القصائد المطولة المتنوعة الموضوعات بمقطوعات يغلب على أكثرها وحدة موضوع واحد فقط ، يعبر عن الواقع التمردي للصعلوك اللامنتمي واهدافه الطامحة الى تقويض البناء الاجتماعي الابوي البطريكي بقيمه الطبقية الجمعية النسقية ، واستبداله بنظام طبقة واحدة هي طبقة الأنومي الصعاليك ، التي صاغت لنفسها قيماً جديدة مضادة للقيم القبلية ، قيم مغايرة تعتمد آلية المساواة والعدالة الاجتماعية والحرية والشخصية الفردية وتحقيق الا ستقلال الذاتي وصنع الوجود الانساني الاصيل المعبر عن الهوية الثورية المتمردة لا الهوية المهمشة التابعة ، ومن ثم خلق الثقافة المضادة للثقافة السلطوية المهيمنة .

الهوامش :

١ – النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية : عبد الله محمد الغذامي ، ٣١ وما بعدها.

٢ – اللامنتمي : كولن ولسون ، ٥ .

٣– ينظر : نفسه ، ٦ و ١٤ .

٤– ينظر : نفسه ، ٢٤٠ – ٢٤١ .

٥– الانسان المتمرد : ألبير كامو ، ٢٠ .

٦– شعر عروة بن الورد العبسي : تح : محمد فؤاد نعناع ، ٥٥ .

٧– الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، يوسف خليف ، ٣٢٠ .

٨ – المذاهب النقدية : عمر محمد الطالب ، ١٣٧ .

٩- شعر عروة بن الورد العبسي : ٤٢ – ٤٣ .

١٠- الاغاني : ابو الفرج الاصفهاني ، ١٤ / ١٠٢ .

١١- مدارات المنفتح والمنغلق في التشكيلات الدلالية والتاريخية لمفهوم الهوية : أراق سعيد ، مجلة عالم الفكر ، مج ٣٦ ، ع ٤ ، ص ٢٣٨ ، ٢٠٠٨ م .

١٢- شعر الشنفري الازدي ، تح : علي ناصر غالب ، ٤٧ – ٤٨ .

١٣- انظر : لسانيات الخطاب وانساق الثقافة ، عبد الفتاح احمد يوسف ، ٢٢٠ و ٢٢٤ .

١٤- اللامنتمي : ٢٧ .

١٥- الرؤى المقنعة : كمال ابو ديب ، ٥٨٢ – ٥٨٣ .

١٦- انظر : الشعراء الصعاليك في صدر الاسلام والعصر الاموي : حسين عطوان ، ٨٥ – ٨٦

١٧- شعراء امويون (القسم الاول) : نوري حمودي القيسي ، ٣٤ .

١٨- التهميش والمهمشون في المدينة العربية المعاصرة : عمر الزعفوري ، مجلة عالم الفكر ، مج ٣٦ ، ع٤ ، ص ١٨٩ ، ٢٠٠٨ م .

١٩- اللامنتمي : ٢٤١ .

٢٠- شعراء امويون (القسم الاول) : ص ٣٠ ، رباب وتثليث : موضعان .

٢١- انظر : الظاهرة الادبية في صدر الاسلام والدولة الاموية ، احسان سركيس ، ٣١٨ – ٣٢١ .

٢٢- شعراء امويون (القسم الاول) : ١١٥ .

٢٣- ينظر : النقد الثقافي . تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية ، آرثر ايزابرجر ، تر : وفاء ابراهيم ورمضان بسطاويسي ، ٢٠٢ – ٢٠٣ .

٢٤- اللامنتمي : ٢٧ .

٢٥- التناص واشارات العمل الادبي : صبري حافظ ، الف مجلة البلاغة المقارنة ، الجامعة الامريكية بالقاهرة ، ع ٤ ، ص ١١ ، ١٩٨٤ .

٢٦- اللامنتمي : ٢٠ .

٢٧- مدخل الى الادب الجاهلي ، احسان سركيس ، ٢٠٠ .

٢٨- شعراء امويون (القسم الاول) : ١١٣ .

٢٩- نفسه : ١١٠ .

٣٠- التهميش والمهمشون في المدينة العربية : ١٨٦ .

٣١- شعر عروة بن الورد العبسي : ٦٨ – ٦٩ .

٣٢- حكمة التمرد : جابر عصفور ، مجلة العربي ، ع ٤٤٤ ، ص ٧٧ .

٣٣- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : ٣٢٨ .

٤٣- شعر عروة بن الورد العبسي : ٥٠ .

٣٥- نفسه : ٥٠ .

٣٦- النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية : عبد الله محمد الغذامي ، ١٥٠ وما بعدها .

٣٧- شعر عروة بن الورد العبسي ١٠٦ ، جرمي : جسمي ، المزلج : البخيل .

٣٨- ديوان القتال الكلابي: تح: احسان عباس، ٢٩ ، الزماع : المضاء في الامر والعزم عليه، لازب: مستمر .

٣٩- ينظر : الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية ، كريم الوائلي ، ٢٠٥ .

٤٠- شعر عروة بن الورد العبسي : ٥٠ .

٤١- شعر الشنفرى الازدي : ٤٨ – ٤٩ .

٤٢- انظر : لسانيات الخطاب وانساق الثقافة ، ٢٢٥ – ٢٢٧ .

٤٣- الاغاني :

(*)- انظر : لسان العرب ، ابن منظور ، ج١٠ / ٤٥٥ و ٤٥٦ ، فقد جاء في مادة (صعلك) : ((الصعلوك الفقير الذي لامال له ، وزاد الازهري ولا اعتماد .. وتصعلكت الابل خرجت اوبارها وانجردت وطرحتها ، وصعاليك العرب ذؤبانها . وفي مختار الصحاح : الرازي ، ١٦٣ ((ذؤب الرجل صار كالذئب خبثاً ودهاءً .

٤٤- اللامنتمي : ٦٦ و ١٢٤ .

٤٥- شعر الشنفرى الازدي: ٣٩ ، وانظر : ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي ، احمد الخليل ،٢٩٧- ٢٩٨ .

٤٦- ديوان تأبط شراً وأخباره ، تح : عبد الرحمن المصطاوي ، ٣١ .

٤٧- الحرية والتنظيم في عالم اليوم ، مجموعة من الباحثين ، ٣٠٨ .

٤٨- شعر عروة بن الورد العبسي

٤٩- الاغاني : ١٢ / ١٢٢ .

٥٠- اللامنتمي : ٩٠ .

٥١- شعراء امويون (القسم الاول) : ٤١ – ٤٥ .

٥٢- انظر : اللامنتمي : ، ٣١ .

المصادر والمراجع :

١ – الاغاني ، ابو الفرج الاصفهاني ، تح : احسان عباس وابراهيم السعافين وبكر عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط٣ / ٢٠٠٨ .

٢ – الانسان المتمرد ، البير كامو ، بيروت / ١٩٦٣ .

٣ – التناص واشارات العمل الادبي ، صبري حافظ ، الف مجلة البلاغة المقارنة ، الجامعة الامريكية بالقاهرة ، ع ٤ / ١٩٨٤ .

٤ – التهميش والمهمشون في المدينة العربية المع اصرة ، عمر الزعفوري ، مجلة عالم الفكر ، مج ٣٦ ، ع ٤ ، ابريل يونيو ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والادب ، الكويت ، ٢٠٠٨ .

٥ – الحرية والتنظيم في عالم اليوم ، مجموعة من الباحثين ، دمشق / ١٩٧٧ .

٦ – حكمة التمرد ، جابر عصفور ، مجلة العربي ، ع ٤٤ ، الكويت

٧ – ديوان تأبط شراً واخباره ، تح عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٦ .

٨ – ديوان القتال الكلابي ، تح : احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت / ١٩٦١ .

٩ – الرؤى المقنعة ، كمال ابو ديب ، دار الجيل ، بيروت ، ط٣ / ١٩٩٧ .

١٠ – شعراء امويون ، نوري حمودي القيسي ، المجمع العلمي العراقي ، ط١ ، بغداد / ١٩٧٦ .
١١ – الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، يوسف خليف ، دار المعارف ، مصر ، ط.٣
١٢ – الشعراء الصعاليك في صدر الاسلام والعصر الاموي، حسين عطوان، دار الجيل، بيروت،ط٣ / .١٩٩٧
١٣ – الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية ، كريم الوائلي ، دار وائل للنشر الاردن ، ط١ / ٢٠٠٨ .
١٤ – شعر الشنفرى الازدي ، ابي فيدمؤرج بن عمرو السدوسي ، تح : علي ناصر غالب ، مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة / ١٩٩٣ .
١٥ – شعر عروة بن الورد العبسي،صنعة ابن السكيت،تح:محمد فؤاد نعناع مكتبة الخانجي بالقاهرة،ط١/ ١٩٩٥
١٦ – الظاهرة الادبية في صدر الاسلام والدولة الاموية ، احسان سركيس ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط١ / ١٩٨١ .
١٧ – ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي ، احمد الخليل ، دار طلاس ، دمشق ، ط١ / .١٩٨٩
١٨ – اللامنتمي ، كولن ولسون ، دار الاداب ، بيروت ، ط٥ / ٢٠٠٤ .
١٩ – لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت (د. ت) .
٢٠ – لسانيات الخطاب وانساق الثقافة ، عبد الفتاح احمد يوسف ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط١ / ٢٠١٠ .
٢١ – مختار الصحاح ، ابن بكر الرازي ، دار رضوان ، سوريا / ٢٠٠٥ .
٢٢ – مدارات المنفتح والمنغلق في التشكيلات الدلالية والتاريخية لمفهوم الهوية ، اراق سعيد ، مجلة الفكر ، مج ٣٦ ، ع ٤ ، ابريل يونيو ، الكويت / ٢٠٠٨ .
٢٣ – مدخل الى الادب الجاهلي ، احسان سركيس .
٢٤ – المذاهب النقدية ، عمر محمد الطالب ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة الموصل .
٢٥ – النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الاساسية ، ارثر ايزابرجر ، تر : وفاء ابراهيم ورمضان بسطاويسي ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ط١ ،.٢٠٠٣
٢٦ – النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية ال عربية : عبد الله محمد الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط٢ / ٢٠٠١ .